

سه ومي المفاخر الصامتة

الصمت البليغ

للاستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

أن يحاطر عليها ، ويسجل فيها ، ويراد بها .. ١١
ولقد بسبب الخطيب (يشقشق) ، وبغائب الكتاب ويتدفق ،
وبتلعب القاص أو الباحث بالألفاظ ويشق ، ثم لا يعرف السامع
أو القارئ ما يريد أن يرى إليه أحد هؤلاء من غرض ، أو
يهدف إليه من غاية ، وبظل حاراً بين آفاق من الفكر الشتت ،
وركام من القضايا والآراء لا تنمقد بينها صلة ، ولا تجمع بين
أطرافها آصرة ..

وقد يشير الأديب أو يصمت ، فيفهم الناس منه ما يريد أن
يقول ، ويتجلى لهم رايه على أحسن ما تكون الآراء عرضاً
وتحليلاً ، ويكون لهم من صمته أبلغ بيان ، وأوضح مقال ،
وأفصح كلام .. ١

إلا أنه إذا جاز أن يكتم فم خطيب ناشئ ، أو يقل إحسان
كاتب أو شاعر شاد بمن يتصدون الإصلاح وقد سلحت نياتهم
— لأن ما يقوله أحدهم ربما يخطئه التوفيق فيمده به من معناه ،
وبجانب الغرض مبناه ، فيثير الفوضى والشغب ، ويورث الضياء
والنصب — إذا جاز ذلك مع واحد من هؤلاء ، فلا ينبغي أن
يتبع مع من يترقب الشعب بأسره ، بل العالم العربي والإسلامي
جميعاً نتاج قرائحهم ، وغار أفكارهم ، ليحظى الناس هنا وهناك
بالفكرة الواضحة ، والقولة الناصحة ، والرأي الدديد ، بشرق على
الناس إشراق الشمس الضاحية ، فيبدد غياهب الجهالة ، ويزيل
غاشية المهابة ، ويخرج بالقلوب الضالة إلى واضح النهج ، وبالأفئدة
الحيرى إلى لاجب الطريق وسواء الدليل ، ويقع من التهم
الباطلة موقع الماء ينسل الأوساخ ، ويزيل الأدران ، والعدل
يمحق الزور والبهتان ، والحزم يقضى على الغام والطغيان

يجب على الآسنة أن تنطلق لتفصح عما يمكنه الجنان ،
ولا يفصح عنه غير البيان .. وعلى الأقلام أن تتحرر لتعبر عن
خلجات المواطن . ورمضات الأذهان ، فإن قلم الكاتب الكبير
قيس من نور الإيمان ، وسلاح من أسلحة الديان ، وجدول
فراق من فيض النبوة لا يفيض ..

لا تكتموا الأقوام الطاهرة ، فذلك يورث الكهنة الدامية ،
ويؤدي إلى النكسة القاسية ، فتقامس الشفاء ، وينبث دعاة
الشر بالفساد في كل مكان ، وتتداحن شائعات الدود على كل

روى أن لقمان الحكيم جلس ذات يوم إلى نبي الله داود
عليه السلام ، وهو يعمل درعاً من حديدة ، فمجب من ذلك
لقمان ، واعتملت في نفسه عواطف مختلفة ، وأحاسيس متباينة ،
لأنه لم ير درعاً قبل الآن يصنعها صانع ملهم ، في راحة وإيقان ،
وحذق واقتنان . بيد أنه آثر الصمت ، لأنه وجد أنه أنسب من
الكلام المقام ، إذ لم تبد على داود عليه السلام علامة
إجابته عن حقيقة ما يصنع إذا سأل ، وكنته ما يعمل إذا طالب
منه ببيان شيء من أمره ، وظل لقمان على هذه الحال سنة كاملة ،
تمت فيها الدرع ، وقامها داود على نفسه ، وقال : درع حصينة
ليوم قتال !

فقال لقمان : الصمت حكم ، وقليل فاعله .. ١

وهكذا يأخذ حديث الصمت بمجامع القلوب ، كما يأخذ
حديث القول بمجامع القلوب ، حتى ليكاد يراجع الإنسان نفسه
فيما علم من بلاغة الكلام ، وأنهم ما مطابقته لفتضى الحال مع
فصاحته ، وأن ذلك إن جاز حيث يستباح القول ، فلا يجوز
الانتصار على ذلك حيث يمتنع على الإنسان الكلام ، أو بمعنى
أدق حيث يمنع من الإبانة والإفصاح ..

والصمت في بعض الأحيان أبلغ من الكلام . ولا يضير
القارئ أن يجد مقالا نالت منه يد الاختصار أو الحذف والبتر ،
وحكمت عليه دون روية بالواد والقتل ، وقضت على جمهرة القارئين
بالحسبان من أسق مورد ، في عصر الثائت فيه الضمار ،
واشتركت الألباب .. أجل لا يضير القارئ الخاص القى تعود
أن ينال غذاءه الفكري الكامل من كاتب بعيد ، وأديب بذاته
— ليكن فيه أن يقرأ العنوان لحجب ، ليستخلص منه الفكرة ،
وأن ينظر إلى الصحيفة البيضاء ، فتتحول إلى نور يضئ معالم
النفس ، ويغلا شفاف القلب ، ثم يطبع في ذهنه كل ما كان يجب